اسم الدرس : تفسير سورة محمد (٤) | الآيات (٢٩-٣٨)

تصنيف الدرس : مجلس تفسير

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

أهلًا بكم في الحلقة الرابعة والأخيرة بإذن الله -سبحانه وتعالى- من وقفات أو تفسير سورة محمد. وهي وقفات سريعة؛ لأن كل كلمة من هذه السورة العظيمة تحتاج إلى وقفات.

والذي يقرأ جهود العلماء في شرح وتفسير القرآن سواء من المتقدمين أو المتأخرين ينبهر، سواءً في تفسير الإمام الطبري، أو ابن عطية، أو من المتأخرين كالإمام البقاعي، أو من المعاصرين كالدكتور محمد أبو موسى، فالدكتور محمد أبو موسى له كتاب رائع في سورة محمد وقد أبدع فيه حقيقةً. فهذه محاولة لجمع مقتطفات من كلام أهل العلم، وسنحاول إسقاط الآيات على واقعنا، بحيث يصبح القرآن حياة نعيش به وليس مجرد كلام نقرأه ولا نتأمل فيه. وقد قلنا في الحلقة الماضية {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}[محمد ٢٤]، نريد أن ننزع هذه الأقفال، نريد أن يتحول القرآن إلى واقع عملي في حياتنا.

ملخص سريع:

تحدثنا المرة السابقة عن:

*الشوق لنزول القرآن {وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ}[محمد ٢٠].

*خطورة المرض في القلب الذي يمنع من العمل.

*أهمية إتباع العلم بالعمل، والعزم والصدق.

*تدبر القرآن {أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}[محمد ٢٤]، وأهمية كسر الأقفال.

*كيف أن الشيطان يسول للإنسان عن طريق الاسترخاء وأنه يتبع العمل ثم العمل.

*خطورة سماع كلام المنافقين، أو الاستماع للشبهات، وسماع الذين يكرهون ما أنزل الله. وهنا إشكال عجيب جدًا: نجد أحدهم يشاهد مقطعًا وهو موقن أن الذي يتكلم هذا الكلام يكره ما نزل الله، ويطعن فيما نزل الله. لماذا تسمعه إذًا؟ فبعدما يسمعه يقول: وقعت الشبهة في قلبي، وأريد ردًا عليها. لماذا تسمعه أصلًا؟ لا بد أن تبتعد من البداية.

ثم قال ربنا -سبحانه وتعالى-: {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ}[محمد ٢٩]، وقد تحدثنا عنهم في أول الصفحة في الدرس السابق {فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ}[محمد ٢٠]، الذي في قلبه مرض، كيف تطلع عليه والمرض في قلبه؟ فالمرض عندما يكون في البدن يظهر، لكن عندما يكون المرض في القلب وخاصةً المقصود هنا مرض معنوي، فقلبه ليس مريضًا بمعنى أنه يحتاج لطبيب قلب، بل المرض معنوي، كيف تستطيع أن تراه؟ فقال الله -سبحانه وتعالى-: هل ظن هؤلاء الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم؟

{أَمْ حَسِبَ}[محمد ٢٩] ((حسب)) في القرآن غالبًا -وهذا أمر يحتاج إلى استقراء- تأتي للظن الخاطئ {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا}[العنكبوت ٤] سواء من أهل الإيمان أو من أهل النفاق. {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ}[محمد ٢٩]، الكفار معروفون، هم في قمة الوضوح والإعراض والصد والمشاقة والهدم والحرب ضد الدين، وأهل الكتاب معروفون ويرفعون شعارهم وواضحون في هدم الدين، الإشكال دائمًا يكون في المنافقين. لذلك نجد في سورة البقرة في بدايتها خمس آيات تتحدث عن أهل الإيمان، وآيتان عن الكافرين، و ١٣ آية عن المنافقين؛ **لوعورة الوصول إليهم**.

كيف نطلع على المنافقين؟ -كما ذكرت يوجد درس لهذا المعنى، لكن هنا نقف وقفة تناسب السورة- يخبرنا الله -عز وجل- أنه قادر بحِكم معينة، وبأقدار معينة أن يخرج هذه الأضغان؛ لأن المنافق يكره الدين، ولكنه يقول في بداية كلامه (بسم الله) ويصلي على النبي -صلى الله عليه وسلم-، ويمكن أن يقول أنه يحب هذا الدين وأنه يفعل ما يفعل لنصرة هذا الدين.

وشيء عجيب لما تقرأ لبعض الناس التي تسببت كتاباتها في هدم أصول في الدين -لكن الله قيض رجالًا للدفاع عنه- فتجد شخصًا يطعن في السنة، وآخر يطعن في القرآن، وآخر يطعن في كلام السلف وآخر يطعن في عموم الصحابة، ويبدأ كلامه أن الدافع له هو الخوف على الدين، والسؤال هنا: كيف نعرف

هؤلاء المنافقين؟ الله يقول أنه قادر على أن يخرج أضغانهم، وبعد ذلك يقول الله للنبي -صلى الله عليه وسلم- {وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ}[محمد ٣٠] هناك معان كثيرة لهذه الآية، لكننا سنقف على معنى معين: الله -عز وجل- يقول لنبيه -صلى الله عليه وسلم-: أنا قادر يا محمد أن أجعلك ترى هؤلاء المنافقين رأي العين بسيما -أي علامة-.

{وَلَوْ نَشَاءُ}أي أن الله لم يفعل ذلك {وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ}[محمد ٣٠] الله قادر أن يجعل علامة مميزة على أهل النفاق. فتخيل مثلًا أن شخصًا قام بعمل برنامج هدفه الظاهر للناس أنه يدافع عن الدين، وهدفه الباطن الطعن في الدين وتقديم شبهات ضد الدين، وقد رأينا أشخاصًا كثيرين مثل هؤلاء. الله قادر -بمجرد أن يتكلم هذا الشخص بكلام فيه نفاق- أن يظهر على رأسه أنه منافق، كما سيأتي الدجال يوم القيامة مكتوب بين عينيه "كافر". قال صلى الله عليه وسلم: (يقرأه كل مؤمن)، فلا يقرأ هذه الكلمة إلا أهل الإيمان. (يقرأه كل مؤمن كاتب وغير كاتب)[1] فحتى من لا يستطيع القراءة سيقرأ هذه الكلمة.

---

[1] [عن أبي أمامة الباهلي:] يا أيُّها الناسُ ! إنها لم تكن فتنةٌ على وجهِ الأرضِ ، منذُ ذَرَأَ اللهُ ذُرِّيَّةَ آدمَ أَعْظَمَ من فتنةِ الدَّجَّالِ ، وإنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ لم يَبْعَثْ نبيًّا إلا حَذَّرَ أُمَّتَه الدَّجَّالَ ، وأنا آخِرُ الأنبياءِ ، وأنتم آخِرُ الأُمَمِ ، وهو خارجٌ فيكم لا مَحالةَ ، فإن يخرجْ وأنا بين أَظْهُرِكم ، فأنا حَجِيجٌ لكلِّ مسلمٍ ، وإن يخرجْ من بَعْدِي ، فكلُّ حَجِيجُ نفسِه ، واللهُ خَلِيفَتِي على كلِّ مسلمٍ ، وإنه يخرجُ من خُلَّةٍ بين الشامِ والعراقِ . فيَعِيثُ يمينًا وشمالًا ، يا عبادَ اللهِ ! أيُّها الناسُ ! فاثبُتوا فإني سأَصِفُه لكم صفةً لم يَصِفْها إياه قبلي نبيٌّ ، ... يقولُ : أنا ربُّكم ، ولا تَرَوْنَ ربَّكم حتى تَمُوتُوا ، وإنه أَعْوَرُ ، وإنَّ ربَّكم ليس بأَعْوَرَ ، وإنه مكتوبٌ بين عَيْنَيْهِ : كافرٌ ، يقرؤُه كلُّ مؤمنٍ ، كاتِبٌ أو غيرُ كاتِبٍ . وإنَّ من فتنتِه أنَّ معه جَنَّةً ونارًا ، فنارُه جنةٌ ، وجنتُه نارٌ ، فمَن ابتُلِيَ بنارِه فلْيَسْتَغِثْ باللهِ ، ولْيَقْرَأْ فواتِحَ الكهفِ... وإنَّ من فتنتِه أن يقولَ للأعرابيِّ : أرأيتَ إن بَعَثْتُ لك أباك وأُمَّك أَتَشْهَدُ أني ربُّك ؟ فيقولُ : نعم ، فيتمثلُ له شيطانانِ في صورةِ أبيه وأُمِّه ، فيقولانِ : يا بُنَيَّ اتَّبِعْهُ ، فإنه ربُّك ، وإنَّ من فتنتِه أن يُسَلَّطَ على نفسٍ واحدةٍ فيَقْتُلُها ، يَنْشُرُها بالمِنْشارِ حتى تُلْقَى شِقَّيْنِ ، ثم يقولُ : انظُرُوا إلى عَبْدِي هذا ، فإني أَبْعَثُه ثم يَزْعُمُ أنَّ له ربًّا غيري ، فيبعثُه اللهُ ، ويقولُ له الخبيثُ : مَن ربُّك ؟ فيقولُ : رَبِّيَ اللهُ ، وأنت عَدُوُّ اللهِ ، أنت الدَّجَّالُ ، واللهِ ما كنتُ قَطُّ أَشَدَّ بصيرةً بك مِنِّي اليومَ . وإنَّ من فتنتِه أن يأمرَ السماءَ أن تُمْطِرَ ، فتُمْطِرُ ، ويأمرَ الأرضَ أن تُنْبِتَ ، فتُنْبِتُ . وإنَّ من فتنتِه أن يَمُرَّ بالحيِّ فيُكَذِّبونه ، فلا يَبْقَى لهم سائمةٌ إلا هَلَكَت . وإنَّ من فتنتِه أن يَمُرَّ بالحيِّ ، فيُصَدِّقونه ، فيأمرُ السماءَ أن تُمْطِرَ فتُمْطِرُ ، ويأمرُ الأرضَ أن تُنْبِتَ فتُنْبِتُ ، حتى تَرُوحَ مَواشِيهم من يومِهم ذلك أَسْمَنَ ما كانت ، وأَعْظَمَه ، وأَمَدَّه خَواصِرَ وأَدَرَّهُ ضُروعًا . وإنه لا يَبْقَى شيءٌ من الأرضِ إلا وَطِئَه وظَهَرَ عليه ، إلا مكةَ والمدينةَ ، لا يأتِيها من نَقَبٍ من أنقابِها إلا لَقِيَتْهُ الملائكةُ بالسيوفِ صَلْتَةً ، حتى يَنْزِلَ عند الضَّرِيبِ الأحمرِ ، عند مُنْقَطَعِ السَّبَخةِ ، فتَرْجُفُ المدينةُ بأهلِها ثلاثَ رَجْفاتٍ ، فلا يَبْقَى فيها منافقٌ ولا منافقةٌ إلا خرج إليه ، فتَنْفِي الخبيثَ منها ، كما يَنْفِي الكِيرُ خَبَثَ الحديدِ ، ويُدْعَى ذلك اليومُ يومَ الخَلَاصِ ، قيل : فأين العربُ يَوْمَئِذٍ ؟ قال : هم يَوْمَئِذٍ قليلٌ ، . . . وإمامُهم رجلٌ صالحٌ ، فبَيْنَا إمامُهم قد تَقَدَّم يُصَلِّي بهمُ الصُّبْحَ ، إذ نزل عليهم عيسى ابنُ مريمَ الصُّبْحَ ، فرجع ذلك الإمامُ يَنْكُصُ يَمْشِي القَهْقَرَى ليتقدمَ عيسى ، فيضعُ عيسى يدَه بين كَتِفَيْهِ ، ثم يقولُ له : تَقَدَّمْ فَصَلِّ ؛ فإنها لك أُقِيمَتْ ، فيُصَلِّي بهم إمامُهم ، فإذا انصرف قال عيسى : افتَحوا البابَ ، فيُفْتَحُون ووراءَه الدَّجَّالُ ، معه سبعونَ ألفَ يهوديٍّ ، كلُّهم ذو سيفٍ مُحَلًّى وسَاجٍ ، فإذا نظر إليه الدَّجَّالُ ذاب كما يذوبُ المِلْحُ في الماءِ . وينطلقُ هاربًا ، ... فيُدْرِكُه عند بابِ لُدٍّ الشرقيِّ ، فيقتلُه ، فيَهْزِمُ اللهُ اليهودَ ، فلا يَبْقَى شيءٌ مِمَّا خلق اللهُ عَزَّ وجَلَّ يَتَوارَى به يهوديٌّ ، إلا أَنْطَقَ اللهُ ذلك الشيءَ ، لا حَجَرٌ ولا شجرٌ ولا حائطٌ ولا دابةٌ ، إلا الغَرْقَدَةُ ، فإنها من شَجَرِهِم لا تَنْطِقُ ، إلا قال : يا عبدَ اللهِ المسلمَ هذا يهوديٌّ فتعالَ اقتُلْه . فيكونُ

لذلك **قراءة الفتنة تحتاج إلى إيمان**، وليس مجرد القراءة والكتابة. قراءة الفتنة على رأس الدجال تحتاج إلى إيمان.

نعود مرة أخرى للآية: يقول الله -عز وجل- للنبي -صلى الله عليه وسلم-: أنا قادر أن أجعل علامة مميّزة للمنافق، فيمشي وسط الناس، ويقول الناس: ها هو المنافق، فيُكتب على رأسه -أو أيًا كانت العلامة- يُكتب عليه: منافق، أو حين يتكلم بكلمة يهدم بها الدين تظهر عليه علامة مميزة، فيعرف الكل أنه منافق؛ ولكن الله لم يرد ذلك؛ لأن الأصل في الدنيا أنها دار ابتلاء وليست دار جزاء، ولا بد أيضًا أن تسعى أنت لتعرف المنافق، لا بد أن يكون لديك علم.

كيف أعرفهم إذًا؟ أنا مطالب أن أعرفهم، فكيف أعرفهم؟ وهناك فرق بين أن تعرفهم لتبني عليهم أحكامًا، وبين أن تعرفهم لتحذر منهم. فعندما يتبين لك أو يكون لديك شكوك معينة أن فلان به نفاق لا تتعجل؛ لأن المنافق يُظهر الصلاة والصيام، فلا بد أن تحترز من ذلك.

نجد سيدنا حذيفة قد أخبره النبي -صلى الله عليه وسلم- ببعض أسماء المنافقين[٢]، وكان كاتم سر رسول الله -صلى الله عليه وسلم-. فكان يمكن لسيدنا حذيفة أن يقف عند الناس ويقول: فلان منافق، وفلان منافق، ولكن سيدنا حذيفة لم يفعل ذلك، سيدنا عمر كان إذا مات أحدهم ينظر إلى سيدنا

عيسى ابنُ مريمَ في أُمَّتِي حَكَمًا عَدْلًا ، وإمامًا مُقْسِطًا يَدُقُّ الصليبَ ، ويَذْبَحُ الخِنْزيرَ ، ويضعُ الجِزْيةَ ، ويترُكُ الصدقةَ ، فلا يَسْعَى على شاةٍ ولا بعيرٍ ، وتُرْفَعُ الشحناءُ والتباغُضُ ، وتُنْزَعُ حُمَةُ كلِّ ذاتِ حُمَةٍ ، حتى يُدْخِلَ الوليدُ يدَه في فِيِّ الحَيَّةِ ، فلا تَضُرُّه ، وتَضُرُ الوليدةُ الأسدَ فلا يَضُرُّها ، ويكونُ الذئبُ في الغنمِ كأنه كلبُها ، وتُمْلَأُ الأرضُ من السِّلْمِ كما يُمْلَأُ الإناءُ من الماءِ ، وتكونُ الكلمةُ واحدةً ، فلا يُعْبَدُ إلا اللهُ ، وتضعُ الحربُ أوزارَها ، وتُسْلَبُ قريشٌ مُلْكَها ، وتكونُ الأرضُ كفاثورِ الفِضَّةِ ، تُنْبِتُ نباتَها بعَهْدِ آدمَ حتى يجتمعَ النَّفَرُ على القِطْفِ من العنبِ فيُشْبِعُهم ، ويجتمعُ النَّفَرُ على الرُّمَّانةِ فتُشْبِعُهم ، ويكونُ الثَّوْرُ بكذا وكذا من المالِ ، ويكونُ الفَرَسُ بالدُّرَيْهِماتِ ، ... وإنَّ قبلَ خروجِ الدَّجَّالِ ثلاثَ سنواتٍ شِدادٍ ، يُصِيبُ الناسَ فيها جُوعٌ شديدٌ ، يأمرُ اللهُ السماءَ السنةَ الأولى أن تَحْبِسَ ثُلُثَ مَطَرِها ، ويأمرُ الأرضَ أن تَحْبِسَ ثُلُثَ نباتِها ، ثم يأمرُ السماءَ في السنةِ الثانيةِ فتَحْبِسُ ثُلُثَيْ مَطَرِها ، ويأمرُ الأرضَ فتَحْبِسُ ثُلُثَيْ نباتِها ، ثم يأمرُ السماءَ في السنةِ الثالثةِ فتَحْبِسُ مطرَها كلَّه ، فلا تَقْطُرُ قُطْرةً ، ويأمرُ الأرضَ فتَحْبِسُ نباتَها كلَّه فلا تُنْبِتُ خضراءَ ، فلا يَبْقَى ذاتُ ظِلْفٍ إلا هَلَكَت إلا ما شاء اللهُ ، قيل : فما يُعِيشُ الناسَ في ذلك الزمانِ ؟ قال : التهليلُ ، والتكبيرُ ، والتحميدُ ، ويُجْزِئُ ذلك عليهم مَجْزَأَةَ الطعامِ

الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح الجامع ٧٨٧٥ • صحيح • أخرجه أبو داود (٤٣٢٢) بنحوه مختصراً، وابن ماجه (٤٠٧٧) باختلاف يسير.

[٢] [عن حذيفة بن اليمان:] في أصحابي اثنا عَشَرَ مُنافِقًا، مِنهمْ ثمانيةٌ لا يَدخلونَ الجنةَ، حتى يَلِجَ الجَمَلُ في سَمِّ الخِياطِ

الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح الجامع ٤٢٣٥ • صحيح

حذيفة ويتتبعه في السر، فإذا صلى حذيفة عليه يصلي، وإذا لم يصل عليه لم يصل أيضًا. بل إن سيدنا عمر ذهب إلى سيدنا حذيفة وظل يسأله مرارًا وتكرارًا: هل سماني لك رسول الله في المنافقين؟ [٣]كان سيدنا عمر خائفًا على نفسه من النفاق. هناك صحابي كان يقول: أدركت ثلاثين من أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كلهم يخشى على نفسه من النفاق، سيدنا عمر يذهب لسيدنا حذيفة ويسأل: هل سماني لك رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؟ وظل يكرر السؤال حتى قال له سيدنا حذيفة: لا، ولن أخبر أحدًا بعدك، فبكى عمر فرحًا أنه لم يكن من المنافقين. فالأمر عظيم!

إذًا كيف نعرفهم؟

فقال ربنا للنبي -صلى الله عليه وسلم-: لم أجعل علامات ولم أجعل سيما، ولكن {وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ}[محمد ٣٠] إذًا لن تعرفهم بعينك، وستعرفهم بأذنك، فالوسيلة التي نعرف بها المنافق ليست بعلامات مميزة على وجهه، وإنما بكلامه {وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ}[محمد ٣٠].

المنافق غرضه هدم الدين، ولكنه يدخل بصورة غير مباشرة، وهذا هو اللحن في الكلام، أن تلحن في الكلام: أي أن تتكلم بصورة تريد شيئًا ويكون لك غرض ولكن لا تذكره بصورة مباشرة، تلحن في الكلام أي أنك تتكلم بصورة غير مباشرة، فتعرّض في الكلام.

المؤمن الفطن الذي يعلم مراد الله، ويعلم ما هو الكلام الذي يصادم مراد الله، فإذا تكلم إنسان بكلام مآله يهدم الدين، وكرر هذا الكلام أكثر من مرة نشك فيه ونخاطبه ونواجهه: لماذا تتكلم بهذا الكلام؟

فإذا جاء شخص وقام بعمل برنامج مثلًا شبهات ضد السنة: حلقة هدم في سيدنا أبي هريرة، وحلقة هدم في سيدنا أبي بكر، وحلقة هدم في سيدنا عمر، وحلقة هدم في البخاري، وحلقة هدم في مسلم، وحلقة هدم في القرآن المكي، وحلقة هدم في القرآن المدني، والقرآن غير صالح للواقع الحالي.

[٣] [عن حذيفة بن اليمان:] دُعِيَ عُمَرُ لِجَنازَةٍ فَخَرَجَ فِيها أَوْ يُرِيدُها فَتَعَلَّقَتْ بِهِ فقُلْتُ اجْلِسْ يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّهُ مِنْ أُولَئِكَ فقالَ نَشَدتُّكَ بِاللهِ أَنا مِنْهُمْ قال لا ولا أُبَرِّئُ أحدًا بَعْدَكَ

الهيثمي (ت ٨٠٧)، مجمع الزوائد ٤٥/٣ • رجاله ثقات

ماذا يفعل هذا الشخص؟! يقول: أنا أدافع عن الدين! أي دين تدافع عنه؟!! بل أنت تدافع عن دين آخر غير الإسلام، فأنت تهدم الوحي، وتهدم الأصول التي يقوم عليها الوحي، هذا الشخص نشك فيه، وأنه قد يكون من المنافقين ونواجهه ونحاربه، وأصبح المنافقون الآن للأسف لا يحتاجون إلى لحن القول، فهم يظهرون ويواجهون، فيمكن أن نجد اليوم برنامجًا كامل شبهات ضد السنة بدون تورية والعياذ بالله.

{وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ}[محمد ٣٠] الله يعلمهم، والله قادر على فضحهم، إذًا المؤمن لا بد أن يتنبه لأي كلام يصدم أصول الدين، من الخطر أن نجد إنسانًا يقوم بهدم أصول الدين، ونحن نسكت! لا بد أن نقف أمامه، لا بد أن يُواجَه، لا بد أن نرد على الشبهة بالعلم، لا بد أن نقف لهم ولا نسمح لهم بنشر هذه الشبهات وبنشر هذه الأكاذيب التي تؤدي إلى هدم دين الناس؛ لأن هذه الكلمات تؤثر في أصحاب القلوب الضعيفة كما قال ربنا -سبحانه وتعالى- {فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ} [محمد ٢٩].

لذلك قال بعض أهل العلم أن تعبير كلمة منافق في القرآن يختلف عن {فِي قَلْبِهِۦ مَرَض}[الأحزاب ٣٢]، وإن كان كثير قالوا أنهما الاثنان واحد. لكن بعضهم قال: الذي في قلبه مرض: لم يصبح منافقًا بعد؛ فهو لا زال ضعيف الإيمان. فالناس مراحل: هناك شخص في قلبه مرض، وشخص مرجف، وآخر منافق، وشخص كافر. والذي في قلبه مرض أقرب إلى الإيمان من النفاق، ولكن قد يقع في النفاق. وهذا قول بعض العلماء الذين حاولوا التفرقة بينهم.

{وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ}[محمد ٣٠]

ما الذي يمكن أن يحدث ونعرف به المنافقين؟!

ذكرت أنه قد تحدث أحداثًا نعرف بها المنافقين، ما الذي يحدث ونعرف به المنافق؟ قال الله -سبحانه وتعالى- مطمئنًا لنا أن الله لن يتركهم، الله -سبحانه وتعالى- لن يترك الصف أبدًا مخلخل، لن يترك الصف فيه عدم تمايز بين أهل الايمان وبين النفاق، قال الله -سبحانه وتعالى- في آية مرعبة: {مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ}[آل عمران ١٧٩] الوضع الحالي لن يستمر، إذًا ماذا سيحدث؟ -سورة آل عمران- {حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ}[آل عمران ١٧٩] أي أن الله يقول: أنا لن أترك الصف كما هو لابد أن يحدث تمييزًا بين الخبيث والطيب، ويمكن

أن يخطر في ذهن أحد ما أن الله سيرينا من المؤمنين فهم سيكونون في جانب، ومن الخبيث فهم سيكونون في جانب آخر، ولكن الله يقول في نفس الآية {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ}[آل عمران ١٧٩] كون هذا مؤمن وهذا منافق هذا من الغيب فالله لن يطلعك عليه، حسنًا، كيف سنعرف؟

{مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ .. وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ ۖ }[آل عمران ١٧٩]

حسنًا كيف سنعرفهم طالما أن الله لن يطلعنا على الغيب؟ بابتلاءات وبأمور تحدث فيخذل أهل النفاق ويوفّق أهل الايمان، لذلك قال الله في الآية التالية: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ}[محمد ٣١] حتى نعلم ويعلم كل الناس، حتى يصبح علم الله -سبحانه وتعالى- مرئيًا واضحًا للناس كلها، أي علم يترتب عليه الثواب والعقاب، إذًا تظهر حقيقة الإنسان بالابتلاءات، تظهر حقيقة الإنسان بالأعمال، واختار قتادة معنى رائع في قول الله -عز وجل-: {يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ۗ }[آل عمران ١٧٩] فقال: "بالجهاد وبالهجرة"؛ **أن تأتي أوامر عظيمة يظهر فيها الثابت المؤمن**، لذلك قال الله -عز وجل- في أول سورة العنكبوت: {أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ}[العنكبوت ٢] هل الإنسان يتوقع أن الإيمان مجرد قول؟ لا؛ بالعكس، لا بد أن يبتلى على قوله لأن هذا شرف عظيم.

تخيل جاء شخص ما يقول بدون أن يرى أحد شهادته، أنا حاصل على دكتوراه في علم كذا، فنقوم بعرض أمراض معينة ونرى هل يستطيع حلها أم لا، ألست تدعي ذلك؟ ومن يمتلك هذه الشهادة يستطيع أن يحل هذا الإشكال! وكذلك إذا كنت تدعي أنك من أهل الإيمان، فإن أهل الايمان يثبتون في مثل هذه المواقف فإذا كنت أنت من أهل الإيمان -ونسأل الله أن نكون منهم- فلا بد أن توفق للثبات في هذه المواقف.

{وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ}[محمد ٣١] هذه الآية من الآيات المرعبة، كان الفضيل بن عياض يخشى من هذه الآية ويقول: "اللهم لا تبتلينا ولا تفضحنا ولا تهتك أستارنا"، الإنسان يطلب من الله أن لا يبتليه فيُفضح، قد يظن الإنسان في نفسه أنه على جبل من الإيمان وهو ضعيف، لذلك هناك حديث عن النبي -صلى الله عليه وسلم- حسنه كثير من أهل العلم في سنن أبي داوود، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من سمع

بالدجال فلينأ عنه، فإن الرجل ليأتيه ويحسب أنه مؤمن -أنا قادم وعندي اعتقاد أنني مؤمن- فيتبعه على ما يبعث به من الشبهات)[٤].

من الممكن أن يأتي شخص ما ويقول أنا سمعت أن هناك شخص ما يقول شبهات ضد الدين إن هذا الرجل يُخرف، سأشاهده لأعرف ماذا يقول، وهو ليس على علم وهو يظن نفسه أنه من أهل الايمان، وهو ليس كذلك فيفتن. كثير من الشباب الواقعون في الشبهات ويأتون ليسألوا عن شبهات ضد الإسلام وعن الإلحاد، كثير منهم بدأ الأمر بأنه كان يريد أن يشاهد ويعرف ماذا يقولون، وأصبح واقعًا في الشبهات -والعياذ بالله-.

{وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ}[محمد ٣١] الجهاد وحده ليس كافيًا، لماذا؟ لأنه من ممكن أن تتحمس فتبدأ بحفظ القرآن، أو تتحمس في طلب العلم أو تتحمس وتجاهد أو تتحمس وتقوم بأي طاعة، ولكن لا تستطيع الاستمرار.

نحن قلنا أن هذه السورة تتحدث من البداية عن معنى من معاني الاستمرار: ألا تتوقف بعدما بدأت في الطريق، المجاهدين والصابرين: أن تصبر على المجاهدة، دائمًا هناك كلمة نقولها كثيرًا وذكرتها بالتفصيل في تفسير سورة العصر، أن خط البداية دائمًا مزدحم، بداية كل أمر تكون مزدحمة، بداية أول ليلة في رمضان في التراويح، بداية من يحفظون القرآن، شاهد مثلًا مجموعة بدأت في حفظ القرآن ستجد المجموعة مزدحمة، في طلب العلم تجد ازدحام، لكن آخر واحد ختم المصحف، آخر واحد انتهى من طلب العلم، تجد قلة، خط البداية مزدحم، وخط النهاية هناك قليل، الصبر:{وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}[العصر ٣]

{وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ}[محمد ٣١]

ما الفرق بين: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ} و {وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ} هل 'نبلونكم' معناها: أعمالك واختياراتك، و'أخبارك' معناها: نيتك وهل أنت صادق أم كاذب؟ بمعنى أن هناك أناس قد تعمل الأعمال ولكن بسوء نية -وهذا أحد الأقوال في الآية-.

---

[٤] [عن عمران بن الحصين:] من سَمِعَ بالدَّجّالِ؛ فلْيَنأَ عنه؛ فواللهِ إن الرجلَ لَيَأْتِيهِ وهو يَحْسَبُ أنه مؤمنٌ؛ فيَتَّبِعُهُ مِمّا يَبْعَثُ به من الشُّبُهاتِ.

الألباني (ت ١٤٢٠)، تخريج مشكاة المصابيح ٥٤١٨ • إسناده صحيح • أخرجه مطولاً أبو داود (٤٣١٩) واللفظ له، وأحمد (١٩٩٦٨)

الشاهد؛ أن أخبارك وأعمالك ستظهر {قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ }[التوبة ٩٤] -سورة التوبة- أيضًا الحديث عن المنافقين {قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ }[التوبة ٩٤] .

الأخبار جاءت في ثلاث مواطن في القرآن؛ في سورة الزلزلة: {يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا}[الزلزلة ٤] تبين أخبارها، وفي سورة التوبة مع المنافقين {قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ }[التوبة ٩٤] ، وهنا في سورة محمد {وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ}[محمد ٣١]، مرتين أن الله -عز وجل- هو الذي أخبرنا، ومرة أن الله أمر الأرض أن تخرج أخبارها. لكن هنا كيف تظهر النوايا الفاسدة؟ عن طريق الابتلاءات المستمرة فيظهر الإنسان على حقيقته {وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ}[محمد ٣١].

ثم بدأ ختام السورة {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ}[محمد ٣٢] جمعوا ثلاث جرائم؛ الكفر، ولم يكتفي بكفره بل منع الناس من الوصول، بل أصر على محاربة النبي -صلى الله عليه وسلم-. {كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ}[محمد ٣٢]فعلوا هذه الأفعال {مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى}[محمد ٣٢].

السورة تُعَرفك من تجاهد ومن تقاتل، أنت في البداية تبدأ بالدعوة، إنسان أصر وكفر وصد عن سبيل الله وشاق الرسول وتبين له الهدى {لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا}[آل عمران ١٧٦] إياك أن تعتقد أن هؤلاء مهما أوتوا من قوة وعتاد أنهم سيهدمون هذا الدين، أبدًا، الله -سبحانه وتعالى- يحفظ هذا الدين، ويقيض لهذا الدين رجالًا يقومون بحفظه {لن يضروا الله شيئا} وكل هذه الأعمال سوف تحبط.

راجع هذه الكلمات في السورة {أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ}[محمد ١] {وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ}[محمد ٨] {فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ}[محمد ٩] {وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ}[محمد ٣٢] تكررت كثيرًا جدًا في السورة، وهذا يدل على كثرة الأعمال التي يقومون بها وكثرة المكر بالليل والنهار، ويدل أيضًا على أن الله -سبحانه وتعالى- يعلم هذه الأعمال وأن الله محيط بهم.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} النداء الختامي في السورة. وذُكِر من قبل في أول السورة {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ}[محمد ٧]، وهنا النداء الثاني {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ}[محمد ٣٣]، يوجد قاعدة في القرآن -نذكرها سريعًا- عن اللفظ المجمل؛ مثل {أَطِيعُوا اللَّهَ} ما هي الطاعة المقصودة، هل الآية تقصد الطاعة العامة، أم تقصد سياق

السورة المتوافق مع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، القتال، الدعوة. إذًا الخطاب هنا خاص معين أي: أطيعوا الله وأطيعوا الرسول في هذه الأوامر تحديدًا.

وذكرنا أن من الإشكالات الكبيرة التي تعالجها السورة أني أقبل ببعض الدين وبعض الدين أرفضه، أختار من الدين ما يناسب أهوائي، كما قال الله -سبحانه وتعالى- في الآية -في سورة الأنفال والتي تلخص الفكرة المحورية التي جاءت في سورة محمد- {وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ}[الأنفال ٧] نريد أي أعمال ليست فيها شوكة، ولا نريد أي عمل به شوكة أو مشقة أو مجاهدة أو بذل أو تضحية، نريد {لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ }[التوبة ٨١] نريد الدين المكيف، نحن نريد {لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ}[التوبه ٤٢] نريد المسافة القريبة والغنيمة الكبيرة وتكون قريبة.

هذه هي شروط المجاهدة عندنا: {عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا}، {لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ}، {غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ }، فكثير من الناس إذا توفرت هذه الشروط الثلاثة يبقى ويجاهد وينصر هذا الدين، ولكن إذا أصبح هناك شوكة أو أصبح الطريق به حر وبذل، ولا غنيمة، وسفر بعيد وليس سفرًا قاصرًا يقول: لن أكمل.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ}[محمد ٣٣]

من معاني{وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ}[محمد ٣٣]: إياك أن تبطل عملك بعدما بدأت فيه، لذلك كثير من العلماء استدل بهذه الآية على عدم جواز قطع النافلة، أي إذا بدأت في نافلة معينة وشرعت فيها لا يجوز لك أن تقطعها ولا سيما في الصلاة، والخلاف معروف في قطع صيام النفل والخلاف فيه طويل، والراجح جواز قطع صيام النفل، والشاهد قول شيخ الإسلام بن تيمية أن هناك أعمالًا في الدين تلزم -يعني تصبح واجبة بعدما كانت نفلًا- بالشروع فيها، وبعدما بدأت فيها ليس لك الخيار.

أشهر مثال: الحج والعمرة، قال الله -سبحانه وتعالى-: {وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ}[البقره ١٩٦] أي إذا انتهى شخص من حج الفريضة وذهب ليحج حج النفل للمرة الخامسة مثلًا، ثم شعر بنوع من المشقة والحر وقال: لن أكمل، فليس له ذلك، ولا بد أن يكمل الحج. مثل: شخص خرج للجهاد في سبيل الله وكان جهاد نفل وليس جهاد فرض -مثل جهاد الطلب لا يتوجب عليه-، لا يجوز له بعد ما حصل المواجهة مع الكفار أن يترك الجهاد حتى ولو كان نفلًا، لأنه أصبح واجب عليك أن تكمل.

لذلك قاس عليه شيخ الإسلام ابن تيمية أن هناك أمورًا في الدين قد تتحول إلى واجب عليك بعد ما بدأت بها، مثل العلم: هناك شخص بدأ يتعلم العلم الشرعي وفتح الله عليه ووفق فيه ورزقه الله فهمًا وعلمًا وحكمة، وفتح له في الدعوة وأصبح يُطلب، فلا يجوز له أن يترك كل هذا ويترك هذا الطريق. فبعدما فتح الله عليك، حتى ولو لم يكن حرامًا فهو خسارة وغبن عظيم أن ترضى بالدنية {مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ}[التوبة ٣٨] أن ترضى بالدنية بعد ما فتح عليك -والعياذ بالله ربنا يثبتنا ويستعملنا-.

وهناك تهديد في ختام السورة {وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ}[محمد ٣٨] إن توليتم بعد ما فتح عليكم يستبدل قومًا غيركم -والعياذ بالله-.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ}[محمد ٣٣] ثم تكرار مرة أخرى {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ}[محمد ٣٢] ، التكرار للمرة الثالثة في السورة {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ}[محمد ٣٤] بيان لمن نقاتل، بعد شوط طويل في آل حم من الدعوة والمحاجة الآن هم أصروا، إذًا لا بد من حل {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ}[محمد ٣٤] الأولى كانت {مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ}[محمد ٣٢]، فهؤلاء أصروا إلى أن ماتوا -والعياذ بالله-؛ فإذا ماتوا فلن يغفر الله لهم، أن يُعطى الإنسان نعمة الحياة، ونعمة العقل والاختيار ثم يختار الكفر والصد عن سبيل الله ومشاقة الرسول ويظل على ذلك إلى أن يموت -نسأل الله السلامة والعافية-.

عندما نقرأ في سير بعض الملحدين الذين هاجموا الدين وهاجموا الأديان عمومًا والدين الإسلامي خصوصًا وأصروا على ذلك إلى أن ماتوا، وكيف أن الله أخزاهم قبل الموت، وهذا يصاب بالجنون، وهذا يخزيه الله -سبحانه وتعالى-، والذي يقرأ في سيرهم يتعجب كيف كانوا في قمة السفول والاهتمام بالشهوات -والعياذ بالله-؟ حياتهم أشبه بحياة الأنعام، ويتصدرون للناس على أنهم من النخب التي توجه الناس، وحينما تقرأ في سير بعض الفلاسفة الذين يتصدرون، والآن يصدر أسماؤهم للناس؛ تجد أن حياته كانت في قمة الخزي والعار -والعياذ بالله-، أصر على ذلك إلى أن مات أخزاه الله -والعياذ بالله- {ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ}[محمد ٣٤] .

إذًا الختام النهائي؛ ما المطلوب منا؟ {فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ}[محمد ٣٥] قد بدأتم الجهاد فلا تتوقفوا، قُلنا أن من معاني السورة الأساسية: لا بد أن تستمر، {فَلَا تَهِنُوا}[محمد ٣٥] **إياك أن يصيبك الوهن في الطريق**، هذه إشكالية تصيبنا، -مثلما ذكرت خطورة كلمة (الصابرين مع المجاهدين)- أنك تبدأ متحمسًا ثم تتوقف في الطريق، والمشهد المشهور أنه مع دخول اليوم الخامس عشر من رمضان ترى المسجد قد قل عدده إلى النصف، مع أنه في بداية رمضان الناس جميعًا مزدحمون، فمسألة الوهن والضعف الذي يصيب الإنسان بأنه لا يستطيع أن يكمل المسيرة {فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ}[محمد ٣٥] بدأتَ الجهاد وفُتِحَ لك وانطلقت وأصبحت أنت القوي، إياك أن تتوقف، مَن أمامك يخدعك عليك ويقول لك ما رأيك في أن نأخد هدنة؛ هو الآن يريد أن يستعد لينقض عليك {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ}[الأنفال ٦٧] -وضحنا ما معنى الإثخان في الحلقة الأولى-، وأنك لا بد أن تكمل المسيرة إياك أن تتوقف.

{فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ}[محمد ٣٥] ، قال بعض العلماء هل هنا يوجد تعارض مع آية الأنفال: {وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا}[الأنفال ٦١]؟ لا يوجد تعارض، ففي الآية الأولى إذا أنت كنت قويًا وفتح لك وأنت تنشر الإسلام وهناك أحد يريدك أن تتوقف، فلا تتوقف، أنت أعلى منهم، إياك أن تتوقف.

{وَاللَّهُ مَعَكُمْ}[محمد ٣٥] المجاهد في سبيل الله، الداعية إلى الله، الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر هو معه معية الله -سبحانه وتعالى-. كيف يتخلى إنسان عن هذه المعية؟ شرف نصرة الدين؛ هذا شرف ينال بسببه معية الله. للأسف أصبح قلة قليلة تبذل أوقاتها لنصرة الدين لله -سبحانه وتعالى-.

أسأل الله أن يستعملنا، إياك أن تتوقف،{الله معكم} وإياك أن تظن أن أي مجهود بذلته للدين سيضيع، {وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ}[محمد ٣٥] يَتِر أي: ينقصكم، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (من ترك صلاة العصر حبط عمله)[٥] وفي رواية: (فكأنما وتر أهله وماله)[٦] أي كأنه خسر كل شيء في

[٥] [عن بريدة بن الحصيب الأسلمي:] كُنَّا مع بُرَيْدَةَ في غَزْوَةٍ في يَومٍ ذِي غَيْمٍ، فَقالَ: بَكِّرُوا بصَلاةِ العَصْرِ، فإنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: مَن تَرَكَ صَلاةَ العَصْرِ فقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ.

البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٥٥٣ • [صحيح]

[٦] [عن عبدالله بن عمر:] أنَّ رَسولَ اللَّهِ ﷺ قالَ: الذي تَفُوتُهُ صَلاةُ العَصْرِ، كَأنَّما وُتِرَ أهْلَهُ ومالَهُ

حياته، خسر ماله، هذا من ترك صلاة العصر عمدًا -والعياذ بالله-، فكلمة {وَلَن يَتِرَكُمْ} أي لن يترككم وسيعطيكم الثواب على كل الأعمال، ومرة أخرى تكرار كلمة (الأعمال) بالجمع فمثلما هناك أعمال للكفار فهناك أمامها أعمال للمؤمنين.

القرآن دائمًا يعالج الدافع الخفي لترك الجهاد، الدافع الخفي لترك الدعوة، الدافع الخفي لترك نصرة الدين. من الممكن أن الإنسان يتعلل بأشياء فقال الله -سبحانه وتعالى- مخاطبًا القلب أو النفس التي تراوغ {إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ}[محمد ٣٦] هذا هو المانع الحقيقي، نحن متمسكون بالدنيا فقال الله -سبحانه وتعالى- بصيغة الحصر والقصر {إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا} هذه الحياة التي تمنعكم من نصرة دين الله هي {لَعِبٌ وَلَهْوٌ} واسمها {الدُّنْيَا} {لَعِبٌ وَلَهْوٌ} اسم يزهد فيها، فهي مجرد لعب ولهو، كيف تختار اللعب واللهو على الحياة الباقية، الحياة الاخرة؟!

{وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ}[محمد ٣٦] هناك أحد خائف من أن ينصر الدين فيقول أنا خائف على مستقبلي، أنا خائف على مالي، أنا خائف على منصبي؛ الله -عز وجل- لم يطلب منك أن تترك كل هذا {وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ} أي لا يسألكم كل أموالكم، وكأن هناك محذوف -هذا أحد الأقوال-، {وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ} أن **الله لم يطلب منك أن تترك كل شيء**.

فتأتي لتحدث أحدًا في الدين فيقول لك: لكن أنا أريد أن أعمل في الدنيا! هل قال لك أحد أن تترك الدنيا؟ كثير ممن يحدثوك في الدين هذا مهندس وهذا طبيب وهذا يعمل؛ لم يقل لك أحد أن تترك الدنيا، لكن القضية ماذا قدمت لدين الله؟ أنت قدمت للدنيا، أنت اجتهدت وبذلت جزاك الله خيرًا، وإذا أنت احتسبت النية تؤجر على ذلك، لكن السؤال ماذا قدمت لدين الله؟ ماذا قدمت؟ تسأل أحدًا ماذا فعلت للدين؟ فيقول لك أنا طبيب! نعم؛ أنا أعلم، ولكن إذا قلت أنا طبيبًا وآخر مهندسًا فمن ينصر الدين إذًا؟! عندما قالوا {شَغَلَتنَآ أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا}[الفتح ١١] كل الناس لديها أموال وأهل، فإذا شغلتني أموالي وأهلي، فمن ينصر الدين إذًا؟! إذًا لا بد أن كل واحد فينا يبذل ما يستطيع لنصرة هذا الدين.

البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٥٥٢ • [صحيح]

{إِن يَسْأَلْكُمُوهَا}[محمد ٣٧] لو كان الله قد طلب منك جميع أموالك {فَيُحْفِكُمْ}[محمد ٣٧] أي أطلب منك الشيء مرارًا وألح عليك وأطلبه منك كثيرًا حتى تعطي، {فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ}[محمد ٣٧] لو كان الله طلب منا أن نخرج كل أموالنا وحدث إحفاء في المسألة وتكرار وإلحاح في المسألة فأخرجنا كل ما عندنا، هذه المسألة قد تخرج الأضغان، قد تحول الإنسان لكره هذا الدين.

هنا ملمح مهم ومعنى كلام شيخ الإسلام؛ كثير من الناس يصلح له المفضول ولا يصلح له الفاضل. أبو بكر رضي الله عنه أخرج كل ماله في سبيل الله فقبل منه النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولكن سعد بن أبي وقاص -رضي الله عنه- عندما كان مريضًا وكان يظن أنه يموت لكن أمدَّ الله -سبحانه وتعالى- عمره وأبقاه؛ فأراد أن يُخرج كل ماله في سبيل الله، فرفض النبي -صلى الله عليه وسلم- ذلك، فقال له: النصف، فرفض النبي -صلى الله عليه وسلم-، فقال: الثلث، فقَبِلَ النبي -صلى الله عليه وسلم- وقال: (فالثلث، والثلث كثير)[٧] أي أن النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول له أخرج أقل من الثلث، لكن النبي -صلى الله عليه وسلم- قَبِلَ من أبي بكر لأن **ليس كل الناس في معيار إيمان أبي بكر الصديق** -رضي الله عنه-. والله -عز وجل- لم يطلب منك أن تخرج كل مالك، فمن الممكن أن يفعل إنسان هذا ولكن قلة قليلة الذي يثق في إيمانه. أحيانًا شخص يقوم بتضحية كبيرة في الدين- لم يطلبها أحد منه- وتتسبب له في انتكاسة، وهذا أحيانًا يكون خطورة الحماسة الغير منضبطة، إذًا نريد أن نكون منضبطين.

كيف يكون لديك حماسة لنصرة الدين؟ وكيف تكون هذه الحماسة منضبطة ولا تجعلك تسقط مرة أخرى؟ أحيانًا الشيطان يدفع الإنسان إلى تضحية لا يستطيعها، أي من الممكن أن يقنع الشيطان إنسانًا مع حماس بعض الناس الذين يحدثوه أن يقدم تضحية ويندم عليها طوال عمره ويظل بعدها يبكي ويندم وينتكس، وهذا كله بسبب أنه قدم تضحية لا يستطيعها، ولذا **الإنسان لا بد أن يكون متوازنًا**

---

[٧] [عن سعد بن أبي وقاص:] جاءَ النبيُّ ﷺ يَعُودُنِي وأنا بمَكَّةَ، وهو يَكْرَهُ أنْ يَمُوتَ بالأرْضِ الَّتي هاجَرَ مِنْها، قالَ: يَرْحَمُ اللَّهُ ابْنَ عَفْراءَ، قُلتُ: يا رَسولَ اللَّهِ، أُوصِي بمالِي كُلِّهِ؟ قالَ: لا، قُلتُ: فالشَّطْرُ، قالَ: لا، قُلتُ: الثُّلُثُ، قالَ: فالثُّلُثُ، والثُّلُثُ كَثِيرٌ، إنَّكَ أنْ تَدَعَ ورَثَتَكَ أغْنِياءَ خَيْرٌ مِن أنْ تَدَعَهُمْ عالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ في أيْدِيهِمْ، وإنَّكَ مَهْما أنْفَقْتَ مِن نَفَقَةٍ، فإنَّها صَدَقَةٌ، حتَّى اللُّقْمَةُ الَّتي تَرْفَعُها إلى في امْرَأتِكَ، وعَسَى اللَّهُ أنْ يَرْفَعَكَ، فَيَنْتَفِعَ بكَ ناسٌ ويُضَرَّ بكَ آخَرُونَ، ولَمْ يَكُنْ له يَومَئِذٍ إلَّا ابْنَةٌ.

البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٢٧٤٢ • [صحيح]

ويستعين بالله ويكون صادقًا أنه لا يفعل هذا لأن الناس ضغطت عليه أو أنه متحرج من الناس، ولكن يفعل ذلك حتى يرضي الله -عز وجل-.

وفي ختام السورة {هَا أَنتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ}[محمد ٣٨] أي لتنفقوا جزءًا من الأموال في سبيل الله، {فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ}[محمد ٣٨] أي حتى عندما يطلب منكم جزء فهناك أناس يبخلون، وهذا الذي يبخل هو لا يبخل على الدين -وهذه قاعدة مهمة لا بد أن تخرج بها من السورة- {وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ۚ}[محمد ٣٨]، عن: حرف تجاوز؛ كأنه يتجاوز عن نفسه، وكأنه يبعد عن نفسه الخير، وكأن الخير كان سيأتيه ولكنه منع الخير عن الوصول إليه، {وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ۚ}[محمد ٣٨] من يبخل لنصرة الدين فإنما يبخل عن نفسه. الدين سينتصر حتمًا به أو بك أو بغيرنا سينتصر.

لذلك قال الله -سبحانه وتعالى- في السورة؛ إذا كنت تعتقد أن الدين سيتوقف عليك {وَإِن تَتَوَلَّوْا}[محمد ٣٨] فإذا أعرضت عن نصرة الدين {يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ}[محمد ٣٨] ولن يكونوا مثلنا، سيكونون أفضل منا مائة مرة {ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم}[محمد ٣٨].

إذًا ضع هذه القاعدة؛ عندما تبخل في الدعوة إلى الله أنت تبخل على نفسك، أي لا أحد يقول أن الدين يحتاجه وأنه إذا لم يعمل سيقع الدين، هذا تفكير خاطئ؛ إذا لم تعمل أنت ستقع، ستقل درجتك، أي عندما تنهض لتتعلم العلم الشرعي وتسهر الليالي لتفهم مسألة حتى تدفع عن دين الله -سبحانه وتعالى- وترد شبهة، أو تتعلم لتعلم الناس، أو تتعلم آية حتى تبلغها، أو تتعلم حديثًا لتوصله، عندما تبذل هذا المجهود وتذهب وتدعو إلى الله وتقابَل بنوع من الإعراض، فأنت تفعل ذلك لأجلك أنت حتى ترتقي.

أنا أعلم أنك تحب دين الله وتريد أن تنصر دين الله، لكن هذا الدين سينتصر، **ومن الشرف لنا أن نُستعمَل**، هذا شرف والإنسان يخشى أن يُنزع منه هذا الشرف، ودائمًا تطلب من الله أن يثبتك في طريق الدعوة لأن الصوارف كثيرة، كما في سورة الجمعة عندما كانوا جالسين في مجلس النبي -صلى الله عليه وسلم- {وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا}[الجمعة ١١] التجارة واللهو التي ستمر عليك والصوارف كثيرة تجعلك تنفض، والذين يمكثون قلة، الصوارف التي ستمر عليك كثيرة فلا بد أن تثبت.

{وَمَن يَبْخَلْ}[محمد ٣٨] اعلم أن كل وقت تبخل به عن الدين إنما تبخل عن نفسك، كل وقت كان من الممكن أن تتعلم فيه شيئًا لدين الله أو تنشره وتبلغه؛ أنت بخلت عن نفسك لم تبخل على الناس، الله سيقيض غيرك ينصر هذا الدين، لذلك قال بعض أهل العلم في {وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ}[محمد ٣٨]: "قد يكون الأعاجم، قد يكونون قوم فارس". كثير من العلماء من كُتَّاب السنة الذين جمعوا السنة وكتبوا وصححوا المسانيد لم يكونوا من العرب، وعلماء كثر كتبوا لخدمة الدين وليسوا من العرب، فإن أعرضنا نحن أتى الله -عز وجل- بغيرنا -نسأل الله السلامة والعافية-.

{وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ۚ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ ۚ }[محمد ٣٨] الآية تخاطب المجاهدين {وَإِن تَتَوَلَّوْا} وإن توقفتم عن المسيرة، وإن توقفتم عن السير، وإن توقفتم عن الدعوة، وإن توقفتم عن البذل {وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ}[محمد ٣٨] أصعب شعور في الحياة شعور الاستبدال، شعور مؤلم -عافانا الله-، أن تكون مُستعمَل في ثغر وتُنزَع منه بسبب إعراضك وبسبب تقصيرك، هذا يجعل الإنسان يبكي أشد البكاء وأشد الندم!

تخيل عندما يكون شخص في منصب عظيم؛ رئيس أو وزير أو منصب عظيم يعظمه أهل الدنيا، ثم يخطئ أخطاء متتالية فيُنزع منه ويقال له: اترك هذا المنصب، فيتألم ويقوم من على كرسي المنصب ويسلم المفاتيح؛ يتألم -وهذا على منصب دنيوي في دنيا حقيرة لا تساوي عند الله جناح بعوضة-، تخيل عندما تكون في شرف الدعوة إلى الله، أن يصطفيك الله -سبحانه وتعالى- لتتكلم عنه، ثم يُنزع منك هذا الشرف، لا بد للإنسان أن يلهج بدعاء (اللهم استعملنا ولا تستبدلنا).

{وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ}[محمد ٣٨] حين يأتي الله بأناس {ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم}[محمد ٣٨] ثم: هنا حرف التراخي، أي سوف يمروا بنفس الابتلاءات التي مررتم بها، فلن يُمكَّن أحد بدون ابتلاءات، ثم: التراخي بين أن يأتي مكانك وبين أنه لن يكون مثلك، فكيف اتضح أنه ليس مثلي أو مثل الذي استُبدل -والعياذ بالله-؟ هذا لأنه مَرَّ بنفس الابتلاءات، كأي شخص سيسير في هذا الطريق؛ هذا الطريق واضح المعالم، إياك أن تعتقد أنك عندما تركت هذا الطريق وأتى غيرك أنه جاء في فترة الرخاء، فالرخاء فيه ابتلاءات مثلما أن الضراء فيها ابتلاءات -نسأل الله السلامة والعافية-.

إذًا أريد منكم أن تعودوا للسورة مرة أخرى، نحن حاولنا أن نوضح لقطات سريعة مع السورة، عودوا لها واقرأوها. من يستطيع وعنده ملكة شرعية كبيرة يقرأ في الطبري، ومن عنده فهم لبعض الأخطاء العقدية

للمفسرين ينتشر في التفاسير اللغوية ويفتح تفاسير أخرى أو يكتفي بابن كثير لو لم يدرس عقيدة، ومن لديه قدرة بلاغية يقرأ لابن عاشور، ويقرأ للدكتور محمد أبو موسي من المعاصرين. التفاسير مليئة بالكنوز، وعلى الأقل احفظ السورة وعِش معها وصل بها، هذا أقل شيء أطلبه منك. لا تقرأ فقط. أنت سمعت الدروس الأربع حلقات فاحفظ السورة وصلِّ بها كثيرًا يفتح الله -سبحانه وتعالى- عليك.

أسأل الله أن يستعملنا ولا يستبدلنا، وأن يجعلنا من السائرين في جيش محمد -صلى الله عليه وسلم- وأن يميتنا على ذلك، وأن يبعثنا على ذلك.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك. وجزاكم الله خيرًا.